



لا جدال بأن إدارة الموارد العسكرية وسياسة اقتصاد الحرب الذي يقوم به تنظيم الدولة الإسلامية يبعث على الاعتقاد بأن التنظيم يستعصي على الهزيمة الكاملة، ويثير إعجاب كافة الخبراء العسكريين، فقد أظهر التنظيم صموداً لا نظير له، ومروره كبيرة في التأقلم مع ضربات التحالفات الدولية الجوية، وهجمات القوات البرية المتعددة في العراق وسوريا، فالتحالف الدولي بقيادة أمريكا الذي تشكل في أيلول/ سبتمبر 2014 لم يتمكن من الاقتراب من عاصمة التنظيم العراقية في الموصل، كما أن التدخل الروسي في أيلول/ سبتمبر 2015، لم يتمكن من الاقتراب من معقل التنظيم في الرقة، ولم تستطع التحالفات الكونية تحقيق نصر استراتيجي حقيقي.

لقد ظهر جلياً أن خسائر تنظيم الدولة لا تقع ضمن السياق الاستراتيجي؛ إذ لا تتمتع المدن الصحراوية كالرمادي وتدمير بأهمية استراتيجية مطلقاً، وهي تقع في المجال التكتيكي، كما كشفت عملية إعادة السيطرة على المدينتين عن فشل الاستراتيجية باعتبارها نموذجاً إرشادياً لـ "تحرير" مناطق أكثر أهمية على الصعيد الاستراتيجي كالموصل والرقة، فقد برهنت هذه المعارك وغيرها عن صعوبة تحقيق نصر على تنظيم الدولة دون استخدام خيارات الأرض المحروقة ونهج التطهير المكاني، كما فعلت من قبل في تكريت وكوباني، إذ لم تتمكن القوات البرية المحلية رغم حشدتها أكثر من 10 آلاف مقاتل مقابل أقل من 150 مقاتل من الدخول إلا عقب تدميرها وتحويلها إلى ركام، ولم تسفر العملية عن أسر أي عنصر من عناصر تنظيم الدولة الإسلامية، وعجزت عن عرض صورة مشهدية لجنة أحد مقاتلي التنظيم، الأمر الذي تكرر في مشهد تدمير.

على الرغم من الصورة الإيديولوجية الفجة لمقاتلي تنظيم الدولة، إلا أن التنظيم يتمتع بسلوكية قتالية براغماتية فائقة، ويدير موارده البشرية والمالية وفق استراتيجية تقوم على الاقتصاد في القوة والتغش في الإنفاق، و يجعل من خسائر القوات المهاجمة فادحة بشرياً ومادياً ونفسياً، ذلك أن العقيدة القتالية لتنظيم الدولة تقوم على الشهادة من أجل الانتصار، فالخليفة أبو بكر البغدادي يؤكّد في كلمة بعنوان "فتربيصوا إنا معكم متربصون"، بعد أشهر من الضربات في 26 كانون أول/ ديسمبر 2015، على نهج التنظيم بقوله: "إن أصابنا القتل وكثرت الجراح وعصفت بنا النوائب وعظمت المصائب فلا عجب أيضاً، وهو وعد الله لنا، بل إن الابتلاء قدر محظوم.. فاثبتوأيها المجاهدون، وما أمامكم إلا إحدى الحسينيين، إما ظهور وإما شهادة، ولا خير في عيشنا إن لم نعش تحت حكم الله وفي ظل شرعه"، أما الناطق باسم الخلافة أبو محمد العدناني في كلمة

صوتية بعنوان "يا قومنا أجيروا داعي الله" في 23 حزيران/ يونيو 2015، فيقول: "يا جنود الدولة الإسلامية في كل مكان، اعلموا أن الله لم يعط عهدا للمجاهدين بالنصر في كل مرة، بل إن من سنته أن جعل الأيام دولا وال الحرب سجالا" ويضيف: "قد يخسر المجاهدون معركة أو معارك، وقد تدور عليهم الدوائر فيخسرون مدننا ومناطق، إلا أنهم لا يهزمون أبدا.. فإن خسرتم أرضا، فستستعيدهونها إن شاء الله وزيادة".

عسكرية تنظيم الدولة ونهجها الاستراتيجي في الصمود والبقاء تتجاوز التجارب التاريخية. فبالمقارنة مع حركات ودول تعرضت لهجمات جوية أقل حدة، وبمشاركة دولية أضعف، كنظام حركة طالبان في أفغانستان، 2001 ودولة البعث في العراق 2003، فقد فقدت طالبان السيطرة على عاصمتها الفعلية قندھار بعد أقل من شهرين من الغارات الجوية للتحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة، وضربات قوات المعارضة الموالية للتحالف، أما دولة البعث فقد فقدت السيطرة على العاصمة بغداد بعد أقل من شهر ونصف من الغزو الأنجلوأمريكي، على الرغم من توافر عناصر تعد أساسية في الصمود كعوورة الجغرافية وتعقيدات الطبوغرافيا، ووجود الحواضن الشعبية.

الاستراتيجية العسكرية لتنظيم "الدولة الإسلامية" كانت شديدة البراغماتية بتأسيس نواة خلافة إسلامية تمتد من حلب إلى الموصل، وتقوم على البقاء والصمود في وجه التحالف الكوني واستنزافه مادياً ومعنوياً، ثم التمدد وفق استراتيجية ديناميكية مدروسة وتكنيكاب مركبة محسوبة، فقد برهن التنظيم على أن تحركاته تتبع تخطيطاً مركزياً يستند إلى بناء هيكلٍ متين، وبنيةٍ إيديولوجية صلبة، حيث عمل التنظيم مبكراً على تطوير مؤسسات بيروقراطية صارمة، وأجهزة سياسية عسكرية متراقبة، فهو يعمل كمنظمة مركزية ذات إيديولوجية دينية شمولية تهدف إلى السيطرة والتتوسيع، ويقدم نفسه هوبياتياً كممثلاً لإسلام سني ممتهن يتعرض لخطر التمدد الشيعي في المنطقة، كما يقدم نفسه مناضلاً ضد الإمبريالية والدكتatorية.

أحد الإشكالات المعقّدة في مواجهة تنظيم الدولة عدم اعتماده على قيادات محددة، إذ يبدو التنظيم كقوةٍ أمنيةٍ استخبارية عسكريةٍ شرعيةٍ مركبةٍ تعمل على خدمة المنظمة وقادتها كائناً من كان، حيث تحل قياداتٌ جديدةٌ مكان قياداتٍ سابقةٍ بصمتٍ كآلةٍ متقنة، فبحسب أبو محمد العدناني في كلمة صوتية بعنوان "قل للذين كفروا ستغلبون" في 13 تشرين أول/ أكتوبر 2015، فإن "من يلتحق بصفوف الدولة يجذبه ذلك النور، ويثبته المنهج الراسخ الذي نهجه قادة الدولة وحمله جنودها في الصدور، حتى غدا ذلك المنهج صمام الأمان، فمن تصدر للقيادة دونه رفضه جنود الدولة وانفضوا من حوله واستبدلوا كائناً من كان".

لقد برهن تنظيم الدولة على صواب ما قاله العدناني والذي جاء تعقيباً على مقتل قائد المجلس العسكري حاجي معتز فاضل أحمد عبد الله الحيالي المعروف بأبي مسلم التركماني، وكان قبله القائد العسكري حجي بكر، وهو سمير عبد محمد الخليفاوي، ثم شغل المنصب بعد مقتله في سوريا في كانون ثاني/ يناير 2014 أبو عبدالرحمن البيلاوي، وهو عدنان أسماعيل البيلاوي، الذي قُتل في 4 حزيران/ يونيو 2014، إذ ينقسم المجلس العسكري إلى هيئة الأركان وقوات الاقتحام، والاستشهاديين، وقوات الدعم اللوجستي، وقوات القنص، وقوات التفخيخ، ويقوم المجلس بكافة الوظائف والمهام العسكرية، كالخطيط الاستراتيجي، وإدارة المعارك، وتجهيز الغزوات، وعمليات الإشراف والمراقبة والتقويم لعمل الأمراء العسكريين، بالإضافة إلى تولي وإدارة شؤون التسليح والغنائم العسكرية، وقد طور المجلس نمطاً من الحروب الهجينة، حيث سرعان ما يتكيف مع التحولات الميدانية وينتقل من نهج اتباع الحروب الكلاسيكية إلى نهج حرب العصابات، وهو في كل الأحوال يعتمد على قوات خفيفة سريعة الحركة ترهق القوات المهاجمة.

لا تزال التكتيكات العسكرية للدولة الإسلامية تتحدى المبادئ التقليدية التي وضعها "ماوتسي تونغ" و"تشي غيفارا" وغيرهم

بشأن الحروب غير المتكافئة، فإن تصرفات الحركة تكشف في الواقع عن فهم متتطور لكتيكات القتال غير المتكافئ، إذ يضع "ماو" ثلاثة مراحل للحرب الثورية:

المرحلة الأولى يكون تركيز المتمردين على التعبئة الشعبية مع اغتيالات للأفراد الرئيسيين للجانب الحكومي، في المرحلة التالية يتم تصعيد حرب العصابات مع تكتيكات الكر والفر التقليدية في مواجهة قوات الأمن، وأخيراً، وبعد أن تكون الحركة قد اكتسبت القوة الكافية وضعف الخصم في المقابل، يخرج المتمردون إلى الحرب التقليدية وينخرطون في معارك ضاربة مع القوات الحكومية، مع الهدف النهائي المتمثل في إلحاق هزيمة ساحقة بهم والاستيلاء على السلطة، فقد تكيفت "الدولة الإسلامية" سريعاً في مواجهة الضربات الجوية للقوات الأمريكية وتجنبت نشر تشكيلات كبيرة من الوحدات المدرعة، وفضلاً عن ذلك، استخدمت تكتيكات المناورة بالوحدات الصغيرة مستغلة بمهارة الفرص من أجل التغطية والتخيىء، كما استخدم التنظيم مجموعة من الهجمات المتنوعة والمفاجئة للإجهاز على قوات تتفوق عليه عددياً في مناسبات عديدة عاكساً دراية عسكرية كبيرة تنافي الاعتقاد السائد حول الاستعداد الطائش للمجموعة لتلقي خسائر في صفوفها.

رغم خسائر تنظيم الدولة لمناطق عديدة في الرمادي وتكريت وبيجي وريف الحسكة وبعض بلدات وقرى الرقة وريف حمص وحماة، فإن التنظيم لا يزال متاماً، وهو قادر على شن هجمات معاكسة واستعادة أو السيطرة على مناطق جديدة، فقد تمكّن التنظيم السيطرة على مناطق في محافظة حلب السورية وعلى أجزاء من محافظة صلاح الدين العراقية، وأجزاء من محافظات الأنبار ونينوى وكركوك وديالى وصلاح الدين في العراق، وكذلك أجزاء كبيرة من الرقة والحسكة ودير الزور وحلب وحمص وريف دمشق، وعلى ضاحية الحجر الأسود في دمشق وأجزاء كبيرة من مخيم اليرموك في سوريا.

بحسب الصديق عمر عاشور تفسر التكتيكات والاستراتيجيات العسكرية للتنظيم قدرته على الصمود والتتوسيع أكثر مما سبق، فالجمع ما بين تكتيكات "إرهاب المدن" (خاصة الهجوم بطوابير السيارات المفخخة بقيادة انتحاريين، والاستخدام المكثف لسلاح الفناصة والاغتيالات قبل وأثناء الهجوم)، مع أساليب الحرب الثورية التقليدية (خاصة الوحدات المختلطة من العسكريين والمتطوعين المدربين، السريعة الكر والفر، والصغرى العدد)، بالإضافة إلى التكتيكات النظامية التقليدية (المدفعية الخفيفة والثقيلة والمدرعات والدبابات، وكذلك الأنواع المختلفة من الصواريخ الموجهة وغير الموجهة)؛ قد أدّت تلك فعالية كبيرة رغم قلة العدد، ورغم أن أسلوب الحرب النظامية التقليدي (وخاصة استخدام المدرعات) قد تم تقويضه إلى حد كبير بفعل الضربات الجوية للتحالف، فإن التنظيم استطاع تجنب المزيد من الخسائر عبر تفريغ وإخفاء الأسلحة الثقيلة وبعض العربات المدرعة والدبابات التي نجت من القصف.

خلاصة القول أن تنظيم الدولة الإسلامية يعمل كآلية متكاملة، إذ لا ينفصل الجهاز الإيديولوجي عن الجهاز العسكري، وتعمل منظومته الأمنية على صيانة الجهازين داخلياً وخارجياً، من خلال المحافظة على نمط معقد من المركزية واللامركزية بدءاً من الولايات ومروراً بالقواعد وصولاً إلى المفارز وانتهائهما بالأفراد، وإذا كانت قوات التحالف الكوني بدأت هجماتها الجوية على أهداف قطعية يقينية للتنظيم، فقد أصبحت تعتمد على الشك والتخيّل، وباتت تفتقر إلى تحديد مصروفات القتل المسبقة، فالمعلومات الاستخبارية حول قيادات التنظيم باتت متقدمة، ولا تتوافق معلومات دقيقة حول القيادات الحالية، وبهذا تعمل القوات الجوية بلا عيون وآذان، وتقتصر مهماتها على دعم القوات المحلية دون رؤية استراتيجية، ومع نفاد صبرها قد تلجأ إلى خيار "غروزني"، لكنه خيار في حال تنظيم الدولة شديد الخطورة ومرتفع التكاليف، وهذا وإن مبدأ الصبر الاستراتيجي من خلال الاقتصاد في القوة يتحول إلى خيار لتنظيم الدولة الإسلامية، بدلاً عن كونه خياراً للتحالف الدولي.

